المشرق

آباء الكنيسة وشيع الهراطقة

للاب البار كنداكبن اليسوعي

قد اجمع كلُّ علماء الدين انَّ لكنيسة المسيح خواصَّ تميزها عمَّا سواها من شيع الخوارج وتسلقت اليها ابصار كلّ الامم المتكمين في ظلال الموت. ولا شكَّ في انَّ الوحدة من اخصّ هذه العلامات المميزة للكنيسة الحقيقيَّة التي طالما افتخرت بها بازاء الكنائس المنفصلة والبدع المستحدثة. كيف لا وبهذه الوحدة تلوح للعيان متانة ذلك البنيان المرصوص الذي شيَّدهُ ابن الله على الارض كما انهُ يظهر بها تناسب جميع أجزائهِ ويستدلّ على حسن هندامهِ

وهذه الصفة الفريدة التي تحلّى بها جيد بيعة المسيح تزيد في بهائها اذا ما اعتبرتَ حالة الهرطقات وتحققتَ ما هي عليهِ هذه النِّحَل من تفرُّق الكلمة وتشتُّت الآراء واضطراب العقائد. فالحقّ يقال انَّ تعاليمها تتناقض وتتنافى ويتقلب اصحابها مع الرياح (افس ٤: ١٤) فينكر زيد ما اثبتهُ عمرو. وربَّما تنقَّل الشخص الواحد من تعليم الى آخر فيُفتي بالايجاب بعد ان قرَّ رأيهُ على السَّلب

وكفى بزعماء الاصلاح الموهوم شاهدًا على قولنا السابق. فانهم ما كادوا يشقُّون عصا الطاعة للكنيسة منذ ثلثمائة سنة بنيّف حتى تضاربت آراؤهم وتناقضت تعاليمهم فاصبح كلُّ واحدٍ منهم ولسان حالهِ يقول:

انا ابو قلمون مع كلّ لونٍ اكون

هذه الاختلافات في التعليم قد أشحنت بها تآليف البروتستانت الاوَّلين

فجاهروا بها ولم يخجلوا منها . ومما يُروَى عن مانكتون من أنتهم انهُ غيّر تعليمهُ في تبرير الخاطئ اربع عشرة مرّة . وقس على ذلك بقيّة كبار المصلحين

وليست هذه التقلّبات مما يُعزى للضعف البشري فيُضرَب عنهُ صفحًا بل انهُ لمبدأ جرت عليهِ هذه الشيع الجديدة فسندت اليهِ مزاعمها وبنت على الرمل بنايتها المتداعية

أفلا تسمعها مثلًا وهي تردّد قولها انَّ الكتاب المقدّس هو وحدهُ دستور الايمان لانَّ الكنيسة قد ضلّت في عقائدها وافسدت تعاليم الخلّص مع ان هذه الشيَع تسلّم بصحّة الكتاب المقدّس وهي لا ترى انَّ في فعلها لتناقضًا لانها بنت ايمانها على كتاب استلمتهُ من كنيسة نسبتها الى الضلال والفساد . فيا ليت شعري كيف اعلم انَّ الكنيسة لم تزوّر هذا الكتاب وتحرّفهُ كما زيّفت بقيّة تعاليمها ؟ ولذلك كان القديس اوغسطينوس نفسهُ يقول : « لولا الكنيسة لما آمنتُ بالانجيل »

ومن تناقض هذه النحل المستحدثة انها تريد اصلاح الكنيسة البابويّة دون ان تبالي باحوال هذه الكنيسة لمّا كانت تسير سابقًا على زعمهم في جادّة الصواب . ولا بُدَّ لهذا الاصلاح من درس تآليف الآباء الاوّلين الذين حفظوا وديعة التعاليم الرسوليّة كما وردت اليهم متسلسلةً بتقليد متواتر . بيدَ انَّ هؤلاء المصلحين لم يرضوا بمطالعة هذه الآثار القديمة بل نبذوها نبذ النواة وزعموا انَّ اصلاح الكنيسة يتمُّ باتّباع آرائهم الخاصّة مع قطع النظر عن كلّ تقليد سابق . وذلك كما لا يخفى عين التناقض

وغاية ما اقصد في هذه العجالة ان ابيّن للقرّاء الشرقيين كيف استهان زعماء الشيع الحديثة بأولائك الملافنة الافاضل الذين نعدُّهم كبدور لامعة بل كشموس ساطعة تلألأت انوارها في سماء الكنيسة فبخسوا حقّهم واهتضموا شأنهم . ثمَّ أبحث عن السبب الذي حمل هؤلاء المتشدّقين على ان يزروا بالآباء الاقدمين و يضعوا من قدرهم

١

اذا تصفّحنا ما نشرهُ أئمة الاصلاح الموهوم من التآليف العديدة ليثبتوا فيها بدعهم وجدناهم لا يتّفقون سوى في امر واحد وهو تحاملهم على آباء الكنيسة الاقدمين . واوّل من زلّ ميدان القذف والطعن عليهم لوثار كبيرهم . فاسمع ما حرّر في بعضهم ونستميح من القرّاء عذرًا في تدوين هذه الشتائم على صفحات المجلّة قال : « اني أُعدّ القديس هيرونيمس كهوطوقيّ لم يكتب غير الخرافات في امر الصوم والبتوليّة . وأعتبرُ

القديس ايريناوس كمجدف لا كافان. وليس القديس يوحنا فم الذهب سوى رجل متغطرس متكبر. ولا تساوي اعمال القديس باسيليوس فلسا واحدا. اما القديس اوغسطينوس فهو كثير الاغلاط لا يُركن اليه في شيء... ليس له ايمان صادق». فبهذه المذام وأشباهها يعير لوتار من افتخر الزمان بفضلهم وطالما ترع الى مثلهم ولكن

هيهات لا يأتي الزمان بمثلهم ان الزمان بمثلهم لبخيل

ولو اردنا حصر هذه السبات البذيئة التي قرع بها ذلك الراهب الخالع العذار أئمة ديننا لضاقت عن حصرها هذه الاطراس وطنت آذاننا من دوي تلك الارجاس التي نعت بها جميع كتبة الكنيسة الاجلاء كقبريانس وغريغوريوس اللاهوتي واوريجانس وامبروسيوس بينما كان يصف نفسه بصفات مدح يأنف عنها كل صاحب ذوق سليم وكان اصحابه يدعونه برضاه «انجيليا وأحد الرسل العظام وبولس آخر وايليا الثاني وبوق السماء ونفم الله واداة الروح القدس». ومما كتب عنه احد انصاره «ان الآباء الاقدمين كهيلاريوس واوغسطينوس وغيرهما لو عاشوا في عهده لتشرفوا بالتتلمذ له ولأعدوا انفسهم سعداء بان يخدموه كاذل العبيد و يحملوا السراج امامه»

وكان وزفنكل وهو ألد اعداء لوتار يشبهه ببغضه لآباء الكنيسة وشهاداتهم وهو الذي كتب: «لا يزال اخصامنا البابويون يستشهدون لنا بكتابات الآباء ولكن ما لي وللآباء فانهم ليسوا باهل ان تُقرأ كتاباتهم او يؤخذ منها دليل لمعرفة الحق»

اما كلوين فانه بعد ان حاول ان يحرف كتب آباء البيعة ليتخذ بذلك حجة لتأييد ضلاله قلب لهم ظهر المجن واخذ يرشقهم ايضا كخلفائه لوتار وزفنكل بنبال الملامة والتبكيت فيدعوهم حينا «أحداث مدارس وجهلة بتفسير الكتاب» وأخرى يصفهم «بالمراء والمحاباة» زاعما انهم لم يكشفوا القناع عن الحق خوفا من الفلاسفة المشركين

ومما يخبر عن تاودور دي باز خلف كالوين ان القديس فرنسيس دي سال دخل عليه يوما فرأى في زاوية من غرفته اضابير كتب وصحف منتثرة يعلوها الغبار فسأله عنها فاجاب دي باز: «هذه اعمال الآباء العتق فقد نبذتها منذ عهد مديد في تلك الزاوية لكثرة ما أودعت من الخرافات». فقال فرنسيس: «اما انا فاني اعتبرها بمنزلة كنوز مدفونة تُغني من يطالعها بروح لم يُعمه الهوى»

وبلغ سكاليجر الكاتب البروتستاني الشهير الى ان دعا القديس هيرونيموس «حمارا

علجاً و يسوعياً محضاً (كذا) وراهباً احق » ونعت القديس اوغسطينوس بكونه « رجلاً اخرق جافي الطباع معانداً للحق »

وقد أتى هؤلاء الكتبة بعبارات اقبح من السابقة في حق ملافنة الكنيسة يخجل قلمنا من ايرادها وفي ما اوردناه كفاية ليكون القرّاء على بصيرة من بذاء اقوال بعض زعماء الهرطقة ومسبّاتهم لآبائنا الافاضل الذين جمعوا بين العلم والفضيلة ولا ينكر فضلهم الّا من انكر ضوء الشمس في رابعة النهار.

٢

ولسائل ان يسأل ترى ماذا ساق هراطقة القرن السادس عشر واتباعهم على ان يقرّفوا الآباء بمثل هذه القذائع ويوسعونهم شتماً رذلاً

الجواب على ذلك انّ دُعاة الاصلاح الموهوم لم يطلبوا بخلع نير الكنيسة الوقوف على الحق بل ارادوا ان ينشروا مبادئهم الثوريّة لشلّ عرش الدين وتقويض دعائم السلطة. ولو كانوا صادقين في قولهم انّهم يقصدون اصلاح الكنيسة لنقّبوا عن اعمال الآباء وعادوا بالنظر الى التقاليد الكَنَسيّة الواردة الينا جيلاً بعد جيل بالاسانيد الواهنة. لكنّهم لمّا رأوا انّ في هذه التآليف القديمة ما يدحض تعاليمهم الجديدة وينقض مبادئهم اشهروا على اعمال الآباء حرباً عواناً واصلوهم ناراً حاميةً لعلّهم بذلك ينتقصون اعتبارهم ويحطّون من قدرهم. الّا انّ الحقّ سيفٌ على اهل الباطل لا بُدَّ ان يفلّ شباتهم وينتصر عليهم وقد قيل ان جولة الباطل ساعة وجولة الحقّ الى قيامة الساعة

وعليه لم يمضِ الزمن الطويل على اشياع لوتار وكالوين ومَن اخذ إخذهما حتى فهموا ما في بَخْس قدْر الآباء من الظُّلم والجور فارعووا الى الرشاد واسكتوا صوت الهوَى واخذوا يدرسون كُتُب الآباء الاقدمين ويعرضونها على تعاليم الكنيسة فرأوا بينهما من الائتلاف ما افحمهم

قال بَرْسُنس في سيرة الطوباوي كمبيون: « وما كان يزيدنا كلّنا قَلَقاً وارتياباً في اقاويل زعمائنا المبتدعين ما كنّا نجدهُ في كتب الآباء الاقدمين ممّا ينفي مزاعمهم ويُبطل احاديثهم وبعد ان كنّا نصرف الليالي ونقضي الأيام الطوال في درس مقالات المتشيّعين الجدد كنّا نطالع اعمال الآباء فما تمرُّ علينا الّا دقائق قليلة فنتحقّق انّ تعاليم

اساتذتنا زورٌ وبُهتان كلُّها مبنيَّة على الرمل منافية لما رقَّهُ الآباء الاقدمون وهم قد فحصوا منذ قرون عديدة كل المشاكل والاعتراضات التي لاذ بها دعاةُ الدين الجديد »

فما لبث پرسنس وكمپيون ان جحدا هذه الاضاليل وعادا الى حجر الكنيسة. وقد انتمى بهما كلُّ من كان سليم النيَّة صادق الطويَّة. فتخوَّف لذلك زعماء البروتستانت من خذلان انصارهم فصاروا يحذِّرون الناس من مطالعة كتب الآباء ويصوِّبون اليهم سهام التَّقريع والشتم. قال احدهم وهو فلوريمون دي ريمون (في الجزء الثامن من تاريخهِ ص ٩٦٥) :« انهُ لمن المستحيل ان يطالع احدٌ بصفاء السريرة اعمال الآباء ويبقى متشبثاً باقوال معلِّمنا كلوين »

نعم القول قولهُ « بصفاء السريرة » لانَّ بعض انصار البدع المستحدثة طالعوا تصانيف الآباء ووقفوا على شواهدهم المقنعة ولم يرجعوا الى الايمان القويم. وما ذلك سوى لتغلُّب اهواء قلبهم على عقلهم او لثقتهم بنفسهم عُجباً بآرائهم الخاصَّة. ومن جملة هؤلاء الذين داوموا على ضلالهم الكاتب الشهير كازوبون (Casaubon) لم تثنهِ عن خطَّتهِ الادلَّة التي وقف عليها في القدماء وهي تثبت بنوع صريح عقائد الكنيسة. الَّا انَّ ابنهُ كان اسعد منهُ حظّاً فعاد الى ايمان آبائهِ

٣

ولمَّا رأى انصار لوتار وكالوين وزفنكل انهُ لا مناص لهم من شهادات الآباء وانَّ اقاويل القدماء تؤيِّد تعاليم كنيسة رومة العظمى صرفوا نظرهم الى وجود طريقة لينتزعوا هذه الشوكة من عقولهم فيطمئنوا بالهم ويُسكتوا صوت ضميرهم. فغاية ما وجدوا ليردُّوا شهادة الكَتَبة الكاثوليكيين كالكاردينالين دو پرُون وبلرمين انَّ الآباء الاقدمين بشرٌ مثلنا وكما اننا لسنا بمعصومين من الغلط كذلك الآباء أمكنتهم الوهم والغلط. فما ادرانا انَّ شهادتهم اصدق من شهادة غيرهم ؟

بيد ان هذا الجواب لم يُفد تَبَعةَ الاصلاح الجديد قوَّةً لانهم جهلوا (او بالحري تجاهلوا) انَّ كلاً من الآباء القدماء يقوم بمنزلة شخصين متميِّزين يُقتضى افرازهما باشدّ الاعتناء والحرص نعني بهما الكاتب الخاصّ وشاهد الدين الصادق اليقين

والحقّ يقال انَّ ايريناوس ويوستينوس ويوحنَّا فم الذهب وباسيليوس واوغسطينوس كتبةٌ سطَّروا الاساطير الكثيرة منها علميَّة ومنها تاريخيَّة وبحثوا الابحاث الطويلة في امور

جمّة لا نعلّق عليها اهمّيّة كبرى لانهم في كتابة هذه التآليف لم يتكلّموا سوى بمنزلة علماء منفردين ليس لهم في صحّتها الّا شرف اسمهم الخاصّ وقدرهم الشخصيّ فيمكنهم ان يهموا ويغلطوا كجميع البشر

ولكن لهؤلاء الآباء مرتبةٌ أخرى غير هذه ترفع بشأنهم وتجعلهم اهلًا بكل اعتبار واكرام ألا وهي منزلة شهداء الحقّ ورتبة انصار الدين وهي تعصمهم عن الغلط لانهم لا ينطقون اذ ذاك عن لسانهم الخاصّ بل عن لسان الكنيسة المعصومة من الغلط. وهذا ما نعهدهُ في اساقفة الكنيسة فانهم متى علّموا كرعاة يغذون شعبهم بقوت العقائد الكنسيّة يُضحي تعليمهم باتّفاقهِ مع تعليم الكنيسة جمعاء تعليمًا خلوًا من الوهم والغلط

وقائل يقول ومتى تكون اقاويل احد الآباء متّصفةً بهذه الصفة التي تجعلهُ لسان الكنيسة معصومًا بعصمتها. قلنا انّ ذلك يظهر من غاية التأليف وموضوعهِ ومن العبارات التي ينتقيها الكاتب حتى يبيّن غرضهُ ومن الادلّة والشواهد القديمة التي يسند اليها رأيهُ حين يكرّر قولهُ انهُ اخذ هذا التعليم من السّلف او من التقليد الرسولي لاسيما اذا اتّفق مع غيرهِ من الآباء او اثبتت الكنيسة بعض اعمالهِ واقوالهِ سواء كان بكتابة عامّة من احد عظماء الاحبار او في بعض مجامعها المسكونيّة. فحينئذٍ يحقّ القول انّ تأليف ذلك الاب لا خطأ فيهِ ويجب تصديقهُ في الامور الاعتقاديّة لانهُ عين الصواب وشاهد اليقين

فلا يحقّ اذن لاصحاب الشيع الحديثة ان يُلقوا ظهريًّا تعاليم الآباء بمجرّد قولهم انهم بشرٌ مثلنا قابلون الوهم والغلط

وقد التجأ قومٌ من المبتدعين الى وسيلة أخرى ليتملّصوا من هذا المشكل العظيم فانهم قالوا انّ الكنيسة داومت على الصلاح واستقامة الايمان في القرون الاولى ولكن تعدّت طورها بعد ذلك وفسدت مع كرور الدهور وعليهِ فانّ تعاليم الآباء صادقة طالما كانت الكنيسة سائرة في محجّة الحقّ ولكن لا سبيل الى قبول شهادات الآباء الذين اتوا بعد ذلك العهد

فيجيبهم الكاثوليك انّ هذا التمييز لا يُجدي نفعًا انصار الشيع المستحدثة لانّ تأريخ الكنيسة كسلسلة لا يمكن قطع حلقة من حلقاتها دون ان تضطرب وتفنى جميعها لانّ الكنيسة جمعيّة يعيش صغارها مدّة مع كهولها وشيوخها ويأخذون عنهم تقاليدهم

ويخلفونهم في تعاليمهم وعوائدهم لاسيما وانَّ هذه الجماعة منبثَّة في اقاصي الارض لا يمكن قسماً منها ان يستبدل شيئاً من العقائد الدينيَّة دون ان يقيم عليهِ غيرهُ الحجَّة ويزيِّفوا تعليمهُ الحديث

وما يبيِّن ضعف هذا الجواب انَّ المبتدعين لم يتَّفقوا على تعيين الوقت الذي غيَّرت الكنيسة تعليمها الصحيح بتعليم فاسد فالبعض يقولون انَّ ذلك حدث في آخر القرن الاوَّل والبعض في الثاني او الثالث . وملنكتون يزعم ان ذلك جرى في سنة ٤٢٠ . اما دي باز وغيرهُ فزادوا كرماً وقالوا انَّ الكنيسة لم تُغيِّر تعاليمها الصادقة الى القرن الخامس بل سلَّم بعضهم بانَّ البيعة بقيت على حُسن خطَّتها الاولى الى القرن السادس والسابع وبلغ بعضهم في تصويب التعاليم الكنَسيَّة الى سنة ١٣٠٠

فيا لله من هذه التقلُّبات والمزاعم المتناقضة التي جعلت احزاب الشيع المبتدعة اضلَّ من الضبِّ لا يذهبون الى قول حتى تتصدَّى لهم عراقيل جديدة لا خلاص منها . فكانت نتيجة هذه الاقاويل المتنافية المتضادَّة تفرُّق الكلمة بين هذه الشيع وهي لا تزال في كلِّ سنة تزيد اختلافاً وتنازعاً حتى لم تكد تجد بينها اتِّفاقاً سوى في شيء واحد وهو مخالفتها لكنيسة رومة وعقائدها الصحيحة

ومن نتائج هذه المزاعم ايضاً فقد كثيرين من هؤلاء روح الايمان فصاروا لا يعتقدون بالمسيح ولا بالكتب المنزلة وهم الذين كانوا سابقاً ينشرون على رؤوس الملأ انَّ الايمان وحدهُ كافٍ للخلاص وانَّ الكتب الكريمة هي دستور عقائدنا الوحيد

امَّا الكنيسة الانكليكانيَّة فلم ترضَ في اوَّل امرها باقاويل لوثر والشيع البروتستانيَّة ولذا كان اصحابها يكرِّمون الآباء الاقدمين ويستقون من موارد تعليمهم الَّا انَّ هذا الروح خمد في قلوب كثيرين حتى أنعَشهُ فيهم اساتذة كليَّة اكسفرد في عصرنا هذا فاقبلوا على دراسة الآباء بغيرة لا مثيل لها وخصُّوا بدرسهم تآليف آباء القرون الاولى الثلاثة فنشروا مطبعات جديدة من كتبهم ودعوا النَّاس اليها وكان منهم رجال كرام ذوو عقل ثاقب وبصيرة نقَّادة فما لبثوا ان وجدوا انَّ الآباء يشهدون بصوت واحد للكنيسة الكاثوليكيَّة فعادوا الى حجرها خانعين خاضعين ولم يثنهم عن عزمهم شيء من المصاعب التي لقوها دون تحقيق رغائبهم

فمنهم من تنازل عن رتبتهِ السامية ومنهم من احتمل اضطهادات شاقَّة . واضطرَّ

بعضهم الى ان يهجروا الاوطان في سبيل الايمان فباعوا دنياهم بدينهم ونعم التجارة. ومنهم رجال العصر الذين تفتخر بهم الكلترة جمعاء كالكردينال نيومن والكردينال مانين والوف أُخَر رفعوا لواء الفضل والفضيلة في وطنهم ولا يزال عددهم يتزايد مع الايام. وما ذلك سوى نتيجة درس كتب آبائنا في الايمان امتعنا الله وجميعَ الضالّين بنور الحقّ والهدى آمين اللهمّ آمين

تقوع : موقعها وآثارها

لحضرة الاب الخوري ميخائيل حُوَيِّس الماروني

شوّقني احد الآباء الافاضل للذهاب الى بلدة تقوع الدارسة للوقوف على مخبّآت آثارها الطامسة فلبّت بكلّيّتي الى ذلك رغبة في ما هنالك فسرتُ اليها مع بعض الاباء الكرام في ١٤ شباط. وقد احببتُ ان انقل وصف ما شاهدتهُ من آثارها وعرفتهُ من اخبارها الى حضرة الاباء من قرّاء مجلّتكم الغرّاء. فازفّها اليهم نبذةً ادبيّةً وعبرة تاريخيّة فاقول:

ان تقوع مدينة قديمة واقعة في سهم سبط يهوذا في الجنوب الغربي من القدس الشريف وهي عن القدس على مسافة خمسة عشر ميلاً. كانت في غابر الزمن مدينة زهراء وروضة غنّاء تُعَدّ من مدن فلسطين العامرة وقد جاء بذكرها الكتاب الكريم مرارًا وتكلّم عنها بعض المؤرّخين بكلام لا يشفي أوام المؤرّخ المدقق

فموقع هذه المدينة على قَهْب (الجبل العظيم مع طول) شامخ تعلو عن سطح البحر المتوسط ٨٥٠ مترًا ولا تقلّ مساحتهُ على ما هي عليهِ الآن عن ٧٠٠٠ متر مربّع وهي من جهاتها تشرفُ على جَدَدٍ من الارض فسيح الفضاء وسيع الارجاء. يتراءى لناظريك البحر الميت (بحيرة لوط) من اكثر مشارفها المطلّة عليهِ شرقًا. فوفرة أنقاضها المتراكمة وكثرة رسومها واطلالها المتراكبة وجمال موقعها الطبيعي الذي تذوق بهِ غيرها من مدن اليهوديّة يثبت انّها كانت مطمحًا للاوّلين ومنتجعًا للرائدين

فمنها كانت تلك المرأة الحكيمة التي ارسلها الى داود الملكِ يوآبُ رئيس جيشهِ في استرجاع ابيشالوم ابنهِ الذي كان ابوهُ داود ناقمًا عليهِ بسبب قتلهِ اخاهُ أمنون